٧٥ أبو المراحم العيدروسى الفقيه الشاعر الرحالة

فى الجهة البحرية من المقام الزينبى الطاهر دُفن الإمام وجيه الدين أبو المراحم عبد الرحمن الحسينى العيدروسى التريمى، نسبة إلى بلدة «تريم» الموجودة باليمن.

ولد هذا الإمام اليمنى الأصل، المصرى الحياة والممات، بعد غروب شمس ليلة الثلاثاء، التاسع من شهر صفر، سنة خمس وثلاثين ومائة وألف للهجرة.

وقد ورد فى الخطط التوفيقية لعلى مبارك، ما نقلته الكتابات الحديثة أن الإمام العيدروسى نشأ على عفة وصلاح، وتقوى وورع وعلم وفضل فى حجر كل من والده وجده فى تريم باليمن، حيث أجازاه وألبساه خرقة الصوفية.

وفى سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف، أى وهو فى الثامنة عشرة من عمره، توجه فى صحبة والده إلى الهند، فنزلا بمدينة «بندر السحر»، واجتمعا بالكثيرين هناك من رجال العلم والدين من الفقهاء والعلماء الذين تربطهم بهما صلة رحم وقربى.

وتأتى أهمية هذه الزيارة فى تأريخ هذا الإمام الجليل أن واحداً من أقاربه ترجع أصوله إلى العيدروسية بالهند قد تولى رياسة دولة آباد فى شبه القارة الهندية، وقد ساعده هذا الرجل وعاونه، حيث فتح أمامه الطريق إلى كل مجالس العلماء هناك، والأكثر أجازة إجازة مطلقة بالطرق الصوفية هناك.

وبعد أن أُجيز الإمام العيدروسى فى الطرق الصوفية بدأ ينتقل من بلد إلى آخر من بلاد الهند طلباً للعلم وزيادة فى التفقه، ورغبة فى زيارة أولياء الله الصالحين، الأحياء منهم والأموات، إلى أن عاد إلى بلدته تريم باليمن مجدداً العهد بذوى

رحمه وقرباه، ولم يطل به المقام طويلاً فى اليمن، حيث توجه منها إلى مكة المكرمة، فأخذ عن شيوخها وفقهائها العلم والفقه، ثم ذهب إلى الطائف، وزار قبر الحبر ابن عباس رضى الله عنه ومدحه بقصيدة. ثم التقى بالسيد عبد الله الميرغني وصار بينهما ود كبير لا ينقطع.

وفى سنة إحدى وستين ومائة وألف للهجرة. توجه الإمام العيدروسى إلى مصر، وكان وقتئذ فى السادسة والعشرين من عمره، لينزل أول ما ينزل فى مدينة السويس ويزور رجلها الصالح العارف بالله «عبد الله الغريب» ويمدحه بقصيدة.

ومن السويس رحل الإمام العيدروسى إلى القاهرة، وزار ضريح الإمام الشافعى، وغيره من أولياء الله الصالحين. ومدح كُلَّ واحدٍ منهم بقصيدة تناسب المقام، وقد جمع تلك القصائد التى كان ينظمها حسب المناسبة فى ديوانه المعروف باسم «رحلة العيدروسى».

وفى القاهرة نال هذا الإمام حفاوة يستحقها كرجل علم وفضل، وفيها أيضاً هرع إليه العلماء والفقهاء، وكبار رجال الدولة فيها، من الأمراء والوزراء والحكام، وما هى إلا فترة قصيرة حتى احتشد عنده الكثيرون الذين وقفوا ببابه، وصارت له معهم مطارحات في الشعر، ومناقشات في الفقه. وكان ممن التقى به شيخ زمانه العالم الصوفى عبد الخالق الوفائى، الذى أحبه ومال إليه لتوافق مشربيهما. فأجازه وألبسه الخرقة الوفائية، وكنّاه بأبى المراحم تقديراً للمكانة التى بدأ يحتلها فى قلوب الناس.

وهكذا أمضى الإمام العيدروسى فى مصر ثمانى سنوات بعدها سافر إلى الحجاز، وهناك تزوج بنت عمه وسكن بها فى الطائف، ثم تزوج مرة أخرى زوجة ثانية، هى الشريفة رقية بنت السيد أحمد بن هارون لتنجب له ولداً أسماه «المصطفى»، وبقى بعد ذلك فترة فى الحجاز، بعدها عاد إلى مصر مصحوباً بأسرته ليستقر بها.

وتتفق الروايات والمصادر التاريخية على أن الإمام العيدروسى استطاع فى فترة ليست بالطويلة أن يكون وحيد عصره، والمرجع الذى يُرْجَعُ إليه فى أمور العلم والفقه. وها هو ذا كتاب الخطط التوفيقية لعلى مبارك يذكر بأنه قد أثنى عليه العلماء والفقهاء، وخضع له واحترمه الأمراء والحكام على اختلاف مناصبهم.

ومن مظاهر هذا التقدير أنه كان لا يُرَدُّ له طَلَبٌ، وأن يكون فى الطليعة مع العلماء والفقهاء فى شتى المناسبات الدينية والسياسية.

غير أن الإمام العيدروسى المحب دائماً للسفر والرحيل لم يستقر به المقام فى القاهرة وحدها، بل شاء أن يقوم بهجرة ولو داخلية فى مدن القطر المصرى، فبدأ بمدن الصعيد، والتقى هناك بمريديه وأتباعه فى الطريقة، ثم يَمَّمَ وجهه شطر الوجه البحرى. بادئاً بزيارة طنطا، حيث القطب أحمد البدوى، ودسوق حيث قطبها العارف بالله إبراهيم الدسوقى صاحب الطريقة البرهامية، والإسكندر حيث قطبها أبو العباس المرسى ودمياط ورشيد.

لكن هذه الهجرة الداخلية لم تكن لتشبعه وهو المحب دائماً للتجوال والسفر، فعاود السفر إلى خارج مصر، إلى الشام حيث توقف بدمشق وغزة ونابلس، ثم إلى تركيا حيث اسطنبول، وكان فى حله وترحاله موضع إجلال وتقدير.

ولم يتوقف عن السفر إلاّ بعد أن تقدم به العمر وهنا اختار القاهرة مقرًا أخيراً له، فعكف على العبادة من ناحية، ونشر العلم والمعرفة من ناحية أخرى. وكتب العديد من المؤلفات القيمة. وظل هكذا إلى أن لبى نداء ربه يوم الثلاثاء فى الثانى عشر من المحرم سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف، بعد حياة حافلة بالعلم والتنقل والعبادة دامت سبعة وخمسين عاما.

وقد خرجوا بجنازته من بيته فى قلعة الكبش بحى السيدة زينب ليصلوا عليه بالجامع الأزهر، وليُدفن فى المقام المواجه بضريح السيدة زينب رضى الله عنهما حسب وصيته لأنه كان دائم الزيارة لها. وكان أحياناً يقوم على خدمة مسجدها.

وقد قام الوالى سعيد باشا ببناء ضريح لهذا الرجل الصالح عليه قُبة كتبت على جدرانها هذه الكلمات:

شاد سعيد العصر فى مصر خير مقام قد زها مثل العروسى
فى نور آل البيت تاريخه كان بناء العتريس والعيدروسى

هكذا انطوت صفحة من الصفحات التى تحمل تاريخ رجل من الصالحين، أفاد بعلمه وفضله المسلمين فى كل مكان كان يتوجه إليه.

* * *

ختام

والآن.. وقد بلغ هذا الكتاب تمامه ـ فى حدود المستطاع ـ وأشرفت صفحاته على غايتها فى هذه اللحظات التى أضع اللمسات الأخيرة بين سطوره، أجمع مجلدات وكتباً وقصاصاتٍ إليها يرجع الفضل كله فى إتمامه.. تمهيداً لدفعه إلى المطبعة.

الآن أشعر بأننى أفرغ من صحبة عزيزة مباركة.. تتمثل فى هذا الحشد العظيم من أعلام التاريخ الإسلامى، اختاروا مصر مكاناً لغرس قيمهم ومبادئهم.. ومع أننى أودعهم فإننى لا أشك لحظة فى تعلقى بهم، وحبى لهم، بعد أن عشت مع أفكارهم ومواقفهم زمناً طويلا.

ولَعَلِّى أستأذنهم ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ بأن أسأل نفسى سؤالا: هل أوفيتهم كل ما يستحقونه من التقدير والإجلال، أو من الرصد والحصر لكل ما تركوه لنا؟

بالقطع لا. فكل ما قدمته من هذه الصفحات لا يعدو أن يكون مجرد إشارة إلى هذه الأعمال العظيمة، وتلك المواقف الخالدة لهذا السلف الصالح.

أقول مجرد إشارة لهذه الأعمال والمواقف الغزيرة كالسحاب الثقال، المنتشرة كالضوء الباهر.

هى مجرد مفاتيح إلى شخصياتهم، بها يستطيع القارئ أن يدرك ما قد فاته، فقد يجده بدون عناء أو مشقة..

هى مجرد إيماءة متواضعة إلى هؤلاء الأعلام فى التاريخ الإسلامى ـ إيماءة وحسب ـ لأننا لو أردنا البحث حول شخصية كل واحد منهم وتأثيره فى زمانه ومكانه لأستغرق الاهتمام مجلداً أو مجلدين.. فما بالنا لو اجتمع خمسة وسبعون عَلَماً فى كتاب واحد؟!

لهذا ولغيره من أسباب أقول: إن هذا الجهد ـ الذى اسعفه توفيق من الله وعونه ـ ليس سوى إشارة إلى أعمالهم ومواقفهم، أو مفاتيح إلى شخصياتهم أو إيماءة إليهم. إن كنت قد أخطأت فى التعبير عنها فلى أجرُ مَنِ اجتهد، وإن كنت قد أصبت فلى أجر من اجتهد وأصاب.. والله ولى التوفيق،

سامح كريم

المعادى
١٥ رمضان ١٤١٥هـ
١٥ فبراير ١٩٩٥م

المراجع

القرآن الكريم	
سيرة ابن هشام	
الإصابة فى تمييز الصحابة	لابن حجر العسقلانى
تاريخ الخلفاء	للسيوطى
تاريخ الإسلام	للذهبى
الكامل	للمبرد
تحفة الأحباب وبغيه الطلاب	للسخاوى
مساجد مصر	للدكتورة سعاد ماهر
محمد والذين معه	عبد الحميد جودة السحار
المجددون فى الإسلام	عبد المتعال الصعيدى
بدائع الزهور فى وقائع الدهور	لابن إياس
النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة	لابن تغرى بردى
رحلة بن بطوطه	لابن بطوطه
تاريخ الرسل والملوك	لابن جرير الطبرى
الممالك والمسالك	لابن حوقل
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة	لابن حجر العسقلانى
الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة	لابن الزيات
الطبقات	لابن سعد
فتوح مصر وأخبارها	لابن عبد الحكم
شذرات الذهب فى أخبار مَنْ ذهب	لابن العماد
العقد الفريد	لابن عبد البر
تاريخ المسلمين	لابن العميد

عيون الأخبار	لابن قتيبه
البداية والنهاية	لابن كثير
مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار	لابن فضل الله العمرى
الأغانى	لأبى الفرج الأصفهانى
فتوح البلدان	للبلاذرى
السنن الكبرى	للبيهقى
إغاثة الأمة بكشف الغمة	للمقريزى
الخطط والآثار	للمقريزى
السلوك لمعرفة دول الملوك	للمقريزى
حياة محمد	للدكتور محمد حسين هيكل
على هامش السيرة	للدكتور طه حسين
الوعد الحق	لدكتور طه حسين
الأعلام	للزركلى
اعلام الاسكندرية	للدكتور جمال الدين الشيال
رجال حول الرسول	خالد محمد خالد
على إمام المتقين	عبد الرحمن الشرقاوى
الحسين ثائرًا وشهيدًا	عبد الرحمن الشرقاوى
تاريخ الإسلام السياسى	حسن ابراهيم حسن
دور العرب في تكوين الفكر الأوروبى	د. عبدالرحمن بدوى
تاريخ الإسلام	للذهبى
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة	للسيوطى
الطبقات الكبرى	للشعرانى
الطبقات الصغرى	للشعرانى
الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية	للمناوى
الخطط التوفيقية	لعلى مبارك
عمرو بن العاص	للعقاد
أبو الشهداء «الحسين»	للعقاد

صبح الأعشى	للقلقشندى
أدب مصر الفاطمية	للدكتور محمد كامل حسين
مروج الذهب	للمسعودى
القبارى زاهر الإسكندرية	محمد زيتون
مراصد الاطلاع فى أسماء الأمكنة واليقاع	ياقوت الحموى
البلدان	لليعقوبى
الفلسفة الإسلامية	للدكتور إبراهيم مدكور
الحركة الصوفية فى الإسلام	للدكتور محمد على أبو ريان
الطرق الصوفية فى مصر	للدكتور عامر النجار
شخصيات صوفية فى صعيد مصر	محمد عبده الحجاجى
فلاسفة الإسلام	للدكتور سعد عبد العزيز
السيدة نفيسة	محمد شاهين حمزة
أئمة الفقه التسعة	عبد الرحمن الشرقاوى
عظماء فى تاريخ الإسلام	حسنى النشار
رابعة شهيدة العشق الإلهى	د. عبدالرحمن بدوى
رابعة العدوية والحياة الروحية فى الإسلام	طه عبدالباقى سرور
العابدة الخاشعة رابعة العدوية إمامة	
العاشقين والمخذونين	د. عبدالمنعم الحفنى
مع النبى فى رمضان	سامح كريم
قمم وأفكار إسلامية	سامح كريم
الحرس القديم للثقافة الإسلامية مقالات بالأهرام	سامح كريم
دائرة المعارف الإسلامية المترجمة	
الموسوعة العربية الميسرة	

كتب للمؤلف

١ ـ رمضان والحرب	١٩٦٨	كتاب الإذاعة والتليفزيون
٢ ـ لمحات من حياة الرسول	١٩٧٠	كتاب الإذاعة والتليفزيون
٣ ـ يوم عاشوراء	١٩٧١	كتاب التعاون
٤ ـ عيد الأم فى الإسلام	١٩٧٢	كتاب التعاون
٥ ـ طه حسين ـ مواقف وأعمال	١٩٧٤	كتاب الإذاعة والتليفزيون
٦ ـ العقاد ـ مواقف وأعمال	١٩٧٥	كتاب الإذاعة والتليفزيون
٧ ـ ماذا يبقى من طه حسن	١٩٧٥	كتاب مؤسسة الشعب
٨ ـ معارك طه حسين الأدبية والفكرية	١٩٧٧	دار القلم ـ بيروت
٩ ـ إسلاميات طه حسين والعقاد وهيكل وأحمد أمين	١٩٧٧	دار القلم ـ بيروت
١٠ ـ ماذا يبقى من العقاد	١٩٧٨	دار القلم ـ بيروت
١١ ـ طه حسين يتكلم	١٩٧٨	دار المعارف
١٢ ـ العقاد فى معاركه السياسية	١٩٧٩	دار القلم ـ بيروت
١٣ ـ العقاد فى معاركه الأدبية والفكرية	١٩٨٠	دار القلم ـ بيروت
١٤ ـ قمم وأفكار إسلامية (ج ١)	١٩٨٤	دار ألف والوفا للنشر
١٥ ـ مع النبى فى رمضان	١٩٨٩	دار الخانجى
١٦ ـ رحلة التنوير	١٩٩١	الهيئة العامة للكتاب
١٧ ـ أعلام فى التاريخ الإسلامى بمصر	١٩٩٥	الدار المصرية اللبنانية